

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الذى دعا الناس إلى العلم والتعلم، وقال فى كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).  
والصلاة والسلام على الرسول الصادق الأمين، الذى علم الأمة، وبين للإنسانية طريق الرشاد.

أما بعد...

فإن علماء الأمة الإسلامية — انطلاقاً من دعوة القرآن إلى العلم — تعلموا، وبجثوا، وصنفوا، وتركوا لأجيال الأمة مصنفات هى ذخائر حية.  
ومن أبرز الذخائر ما جاء فى علم الكلام، الذى برز فيه العلماء فى وقت اشتدت الحاجة إليه، حين كانت المناظرات، ومجالس العلم، مع أصحاب الملل والنحل.

والتقليل من شأن علم الكلام فى أى وقت، دليل عجز، وجهل، وتعصب، لأن احترام علوم نبغ فيها علماء الأمة فى وقت الازدهار الحضارى، والفكرى، والعقلى لمن الحياة.

واحترام علماء الأمة وأئمة هذه العلوم، ضرورة حياتية، لا يقدرها إلا الأحياء الذين يريدون لمجتمعهم الحركة والحياة.

وقد نختلف مع هؤلاء العلماء فى بعض ما ذهبوا إليه، ولكن ليس معنى ذلك أن ننكر جهودهم واجتهادهم ودورهم.

وقد يكون المنكرون لعلم الكلام، ولعلمائه على صواب فيما يذهبون إليه فى بعض القضايا، ولكن ليس من الكياسة أن يظل هؤلاء يرددون ليل نهار، هذا الإنكار، ويصبحون ويمسون، وليس لهم إلا مواجهة علم الكلام، وهم أعجز من أن ينالوا منه.

إن الذين يبحثون فى نقد قضايا علم الكلام. هم فى الحقيقة يعملون على نشر علم الكلام وكتبه من حيث لا يدرون.

ولذلك نجد كثيراً من الباحثين والدارسين في الجامعات يجهدون أنفسهم في الحصول على كتب علم الكلام القديمة، وأصبح لهذه الكتب — في ظل تطورات فكرية لها — سوق رائجة.

وقد يكون واضحاً أن تواجد الكتب، ونقد العلماء معلم من معالم الصحة والعافية في الأمة، ما لم يتحول إلى معول هدم، كما هو الحال عند أصحاب المذاهب المبتدعة التي أفرخها شياطين الإنس لتنال من كل العلماء ومن كل العلوم، ولا ترضى إلا بمذهبها هي، ويعلمائها هي.

ومن الغريب الذي يدل على جهل هؤلاء: أن هؤلاء الجهال، يصور لهم جهلهم: أنهم هم على حق، وأن ما عداهم من المسلمين، ومن مذاهب الأمة، على غير ذلك.

وهذه ظاهرة هدم تشير إلى ما ينبغي على علماء الأمة من مواجهة هذه الأفكار الظلامية الجامدة، التي ما جاءت إلا لتؤخر مسيرة الأمة، وتشيع في مجتمعات المسلمين والإنسانية البلبلة، والقلق، والاضطراب، والفوضى.

ومما يلاحظ: أن بعض كتب التراث حين تحقق وتطبع تتعرض للمسح والحذف، لما قد يكون فيها من مواد لا يرضاها هؤلاء المنتظعون.

وقد ذكر لي عالم جليل من علماء النشر، ما يحدث لبعض الكتب المحققة، حيث لا يصرح بطبعها ونشرها إلا إذا تم حذف ما يتصل بعلم الكلام والتصوف، والصوفية.

وهذا يمثل خطورة ضارة بالتراث الإسلامي الأصيل، وتلك كارثة لا يمكن قبولها، إلا عند هؤلاء المرضى لأنهم لا يحسون، ولا يشعرون، ولا يفهمون، ولا يدركون.

ويوم أن كانت الأمة الإسلامية تدرك هذه القيم قيم علم الكلام، كان لها شأنها واعتبارها، إلا أن الأمة عاشت ألواناً من الصراع حال دون وحدتها بصورة فاعلة وبانية، مما كان سبباً في أن تعدو عليها أمم تتربص بها، تريد الهيمنة عليها، ومنعها من أن تظل قوة تعلى كلمة الحق في دنيا الناس.

وتمثلت بعض ألوان الصراع في التعصب المذهبي الأعمى الذى فرق المسلمين إلى طوائف على الرغم من وحدة الأصول بين المذاهب الكلامية والفقهية، وأن الاختلاف بينها اختلاف فى مسائل فرعية، وقضايا جزئية، وهو اختلاف لا ينبغى أن تمخض عنه خصومات وصراعات، لأنه فى جوهره مظهر من مظاهر الحرية الفكرية فى الإسلام، وآية من آيات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

وقد يكون واضحاً أن الأمة الإسلامية — وإن اختلفت فيها المدارس الفكرية — تملك أساساً مشتركة تستطيع بها أن تجمع شتاتها، وتوحد كلمتها فهى أمة واحدة، ذات دين واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد. هذه الأصول الثابتة التى تشترك فيها الأمة، فإذا أدركتها جيداً، والتزمت بمقتضاياتها، فإن ذلك يجعل منها أمة واحدة، تلتقى على وحدة الغاية، ووحدة المنهج، ووحدة القيادة، ووحدة العقيدة.

ولا بأس من تناول هذه الأسس بإيجاز لتوضح المعالم المضيئة فى الطريق:

١- وحدة الغاية: حيث إن المسلمين جميعاً يدركون غاية وجودهم فى هذه الحياة، وهى الطاعة الكاملة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) وإدراك هذه الغاية أساس أصيل فى وحدة المسلمين.

٢- وحدة المنهج: وهذا المنهج الذى يجب اتباعه هو ما أشارت إليه الآيات الكريمة: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) وليس لهذا المنهج إلا مصدر واحد وهو الله سبحانه وتعالى، فهو الذى وضعه للمسلمين، فإذا اتضحت هذه الحقيقة فى أذهان المسلمين، وأشرقت فى قلوبهم المؤمنة، تمثلوها فى واقعهم وسلوكهم.

٣- وحدة القيادة: لقد شاء الله أن يكون الإسلام آخر الرسالات السماوية فى الأرض، وأن يكون محمد ﷺ آخر الرسل، فيه أكمل الله الدين، وبه ختم المرسلين، وهذه الحقيقة يجب أن تتضح فى أذهان المسلمين، إذ بقدر وضوحها والتزامهم بها، يتيسر للأمة الاجتماع.

٤- وحدة العقيدة: فالعقيدة هى الأساس الذى يرتفع عليه بناء الدين، فإذا قوى الأساس سهل على الأمة تصحيح أوضاعها، وأمكن لها الاجتماع واللقاء،

وحين تكون العقيدة واضحة في الأذهان مشرقة في القلوب تزول الحواجز التي قامت بين الأمة.

فالحق كل الحق، أنه لا ضرر على المسلمين في أن يختلفوا، فإن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع، ولكن الضرر في أن يفضى بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الأخوة التي أثبتها الله في كتابه العزيز، لا على أي شيء يؤمر به المؤمنون، ولكن على أي حقيقة واقعة رضى الناس أم أبوا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَابِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠).

فالخلاف فيما يتعلق بالعقائد، لم يتجاوز الحد النظرى، ولا الاتجاه الفكرى، فإن العلماء الذين تصدوا لهذا لم يجر بينهم خلاف أدى إلى امتشاق الحسام، وطبيعة حياتهم العلمية لا تسمح لهم بأن ينقلوا الخلاف من ميدان القول إلى ميدان العمل، ولم يكن الاختلاف النظرى ليصل في حدته إلى أن يجعله عملياً، ولم تظهر الحدة إلا في أن يحكم كل واحد على الآخرين بالخطأ والابتداع.

ومهما يكن مقدار الخلاف النظرى في العلوم الاعتقادية، فإنه لم يمس لب الإسلام، ولم يكن الاختلاف فيما علم من الدين بطريق قطعى، لا شك فيه، أو في أصل من أصوله التي لا مجال لإنكارها، والتي تعد من أركان الإسلام التي يقوم عليها بناؤه..

فالخلاف حول أوائل المقالات أو المعارف الكلامية، يجرى حول معارف إسلامية، تبلور كثيراً من الحقائق، وتصل العقول والأفهام، وتحدث باحتكاكها، وميضاً يكشف سبل البحث، وطرائق الاستدلال، تلك هي مذاهب الإسلام الكلامية، وهي في باطنها تشير إلى الوحدة لا إلى الفرقة، وتنبئ عن الاجتماع، لا عن التشتت.

فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله تعالى، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، ولا في أن القرآن نزل من عند الله العلى القدير، وأنه معجزة النبي الكبرى، ولا في أنه يروى بطريق متواتر، نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلاً بعد جيل، ولا في أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، ولا في طريق أداء هذه التكليفات..

وبعبارة عامة: لم يكن الخلاف في ركن من أركان الإسلام، ولا في أمر علم من الدين بالضرورة، كتحريم الخمر، والخنزير، وأكل الميتة، والقواعد العامة للميراث.. وإنما الاختلاف في أمور لا تمس الأركان، ولا الأصول العامة. إن هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الرفاق، فهي ترتبط بأصل واحد وهو الكتاب والسنة، ومدارس الفكر المختلفة داخل الإسلام، شئء طبعي، مرغوب فيه، ليس منه بد، ما دام الإسلام دينًا حيًّا لأحياء، لكي يزدادوا حياة. والإسلام نفسه شحنة هائلة من النشاط العقلي، تأتي أن يتحول المسلمون إلى مجرد نسخ متطابقة، تتكرر باستمرار، وبلا اختلاف، من عقل واحد، أيًا كان هذا العقل، حتى لا يهلك المسلمون من الإجداب، والرتابة، والركود، والشعور بالقدم..

وليس يرضى الإسلام أن تلد الأمهات المسلمات إمعات مكررة معتمة، وإنما يرضيه ويعليه إنجاب العقول اليقظة النشطة.. وبكل تأكيد ستظل المذاهب الكلامية، ومدارس الفكر في الإسلام، توجد ما بقي للمسلمين حاجة إلى التعبير عن تراثهم العقلي، والروحي، وإلى استدامة الصلة بين أصول دينهم، وبين واقع الحياة، وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين كبت النشاط العقلي والروحي داخل الإسلام، لأن من أجل ما يقدمه المسلم لدينه: أن يفكر فيه ويشعر به. والإسلام يضعف ويصبح تراثًا جامدًا محنطًا إذا لم يفكر فيه ويشعر به إلا الحمقى والجهلاء..

إذن لا بد أن نعنى دور العقل الإسلامى، ومن أوضح سمات القرآن الكريم التي لفتت نظر الباحثين، هي الإشادة بالعقل، وتوجيه النظر إلى استخدامه، فيما يفيد، وينفع، فدعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر، إلى تقدير العقل والرجوع إليه، فيما اختص به من تفكير.

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى، حتى إنه ليكرر هذا في الدعوة بشكل يلفت النظر، ويثير الاهتمام من التفكير، والنظر، والتدبير، والحكمة، والتذكر، والعلم، والفقهاء، والرشد، والبصر.. إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول

الوظائف العقلية على اختلاف معانيها، وخصائصها، وظلالها، مما يعتبر إبحاءات قوية، بدور العقل وأهميته.

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة، ولا مقتضية في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها، مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة.

ولا يأتي تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتعتمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته.

فلا ينحصر خطاب العقل منها في العقل الوازع، ولا في العقل المدرك، ولا في العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح، بل يضم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة..

ومن خصائص العقل أنه ملكة الإدراك التى يناط بها الفهم والتصور.

ومن خصائص العقل أيضاً أنه يتأمل فيما يدركه ويقبله على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبين عليها نتائج وأحكامه، وهذه الخصائص فى جملة ما يجمعها ملكة (الحكيم).

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى (الرشد) وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد..

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتفكرون.

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يدرك الحقائق، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر ويتدبر، فالإسلام هو الدين الذى أعلى من شأن العقل وعده أداة صالحة لتعرف الحقائق، وفى رأسها الإيمان بالله وقدرته، ووحدانيته، وهو الدين الذى طلب من الإنسان، أن ينطلق إلى الإيمان من الدليل والبرهان.

ولذلك دعا إلى إعمال العقل والتفكير به، وذم الذين يهملون عقولهم، ويعطلون نعمة الله فيهم، ويلوذون بتبعية أو تقليد، من غير تفكير، ولا نظر، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الأمور التالية:

أولاً: لقد طلب القرآن الكريم من الإنسان أن يفكر فيما يدعى إليه، إما منفرداً بنفسه، وإما مجتمعاً مع أناس آخرين؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِيًّا وَفِرَادَىٰ تُهْمًا تَفْكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبا: ٤٦).

ثانياً: لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

ثالثاً: لقد ذم القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقي إليهم ولا يعملون فيه عقولهم، عدهم كالبهائم، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

رابعاً: لقد ذم القرآن الكريم التقليد الأعمى، وهو أن تتبع غيرك من غير وعي، ولا تفكير، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَسْبِعُ مَا الْفَرِيقَ عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَاتَّبَعُوا﴾ (البقرة: ١٧٠).

خامساً: لقد هيى القرآن الكريم الإنسان أن يتبع شيئاً ويؤمن به، من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع، وبرهان مقنع، يصل إلى درجة العلم واليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦).

ولما كان العقل له في الإسلام هذه العناية الفائقة من التقدير، فقد اتخذ له الإسلام منهجاً فريداً في تحريره، ليظل العقل عاقلاً، والفكر راشداً، وهذا المنهج يقوم على دعامين أساسيتين، من شأنهما حراسة العقل، وترشيد الفكر.

- وأول دعائم المنهج الإسلامي في تحرير العقل، هو تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي، وسيطرة التبعية العمياء، حتى يقوم العقل على حرية الفكر، واستقلال الإرادة، ليكمل بذلك العقل، ويستقيم التفكير.

- الدعامة الثانية في المنهج الإسلامي، هي تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر، والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمي البصائر، ويميت عناصر الحياة والقوة في الأفراد والجماعات، والأمم، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة.

فالمنهج العقلي كتيار فكري، ومنهج عقلي، كان لا بد من ظهوره، وذلك لمجابهة التحديات الفكرية التي لاقاها الإسلام عندما امتد سلطانه، وعندما اشتد الصراع الفكري بينه وبين أصحاب الأديان الأخرى، من يهود، ونصارى، ومانويين، وزرادشتيين، وصابئة، ودهرين.

لقد فتح الإسلام كقوة سياسية أرض الديانات القديمة، وأثبت كيانه فيها، إلا أن الإسلام كتنصور روحي خاص استمر يناضل فكرياً أهل الأديان، والعقائد المختلفة، لمدة طويلة.

اشتبك خلالها المخلصون - أصحاب العقليات - في حزب ضروس مع أصحاب الأهواء والبدع من الزنادقة والدهرية، والمشبهة، والحلولية، مثلوا فيها معارضة فكرية قوية، صانوا فيها البناء الروحي والفكري للإسلام من خطر تلك الآراء التي أرادت أن تشوه صفاء العقيدة الإسلامية.

والأمة الإسلامية في (عقلانيتها) التي انطلقت من دعوة القرآن، لم ترفض الوحي، ولم تتنكر للنص المأثور، وأيضاً فهي لم تقف لتعبد بالنص المأثور دون وعي، وإنما وازنت بين العقل والنقل، ووقفت بين الحكمة والتشريعة، وحكمت العقل، ولجأت إلى التأويل عندما لاح التعارض بين ظواهر النصوص، وبين براهين العقل.

فليس من مصلحة المسلم ترك الضحالة، والمحاكاة، والرتابة، والألية، تطمر أعماقه، وتأكل إرادته.

ولا بد أن ندرك أن الخلاف، والاختلاف ضروري، لأن ورود المتشابه في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) كان سبباً في اختلاف العلماء، في مواضع المتشابهات من القرآن الكريم، وحاول كثيرون من ذوى الأفهام تأويله، والوصول إلى إدراك حقيقة معناه، فاختلّفوا في التأويل اختلافاً بيناً. لأنهم لم يقنعوا بالإيمان بالمتشابهات جملة من غير تفصيل، فجمعوا الآيات التي قد يظهر بينها خلاف، وسلطوا عليها عقولهم، فأداهم النظر في كل مسألة إلى رأى فإذا وصلوا إليه، عمدوا إلى الآيات التي يظهر لهم أنها تخالف الأولى، فأولوها فكان التأويل طريقاً من طرق النظر العقلي.

وطبعي أن هذا المنحى في التأويل، وإعطاء العقل حريته في البحث والنظر يستلزم تعدد المذاهب.

ويقول ابن خلدون: «إنه توجد في القرآن آيات متشابهة، يلبس معناها على القارئ، ولذلك نشأ خلاف في تفاصيل العقائد، أكثر مثارها من الآيات المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام، والتناظر، والاستدلال بالعقل.

فالعلماء لم يختلفوا على تنزيل القرآن، وإنما اختلفوا على تأويله، أى أنهم — كما يقول الزمخشري — متفقون على نصه، ولكنهم مختلفون في تفسيره. فالقرآن فيه محكم ومتشابه، ولو كان القرآن كله محكماً لتعلق الناس به بسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجونه فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولارتكنا إلى طريقة التقليد.

إن وجود متشابه الآيات أدعى إلى أن يشحذوا الفكر للاستنباط، ويكدوا في معرفة الحق خواطرهم، وإتباعهم القرائح في استخراج معانيه، وما في رد الآيات المتشابهة إلى المحكم من الفوائد الجليلة، ونيل الدرجات عند الله.»

ويعلق الدكتور أحمد محمود صبحي على ما ذكره الزمخشري فيقول: وهكذا الملح الزمخشري إلى عامل من أهم عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية عقب قيام الإسلام إذ ألزم القرآن المسلمين بما غمض من معاني آياته ومحكمه ومتشابهه: البحث، والنظر، والتفكير، والاستنباط.

ولو كان سهل المأخذ، يسير الفهم، لكانت السطحية التي تغرى بالتقليد والجمود، فالاختلاف قرين حرية الرأي والتفكير.

والتأويل — كمنهج عقلي يقصد منه إبعاد التصورات التي لا تليق بالألوهية وكوسيلة للتقريب، والتوفيق بين العقائد الدينية التي تثبت بالوحي وعمقتضيات العقل — ظاهرة دينية.

والتأويل كمنهج عقلي يرتبط تاريخياً بالمعتزلة الذين أيقنوا من أن إبعاد التصورات والصفات والأحوال التي لا تتفق وطبيعة الألوهية لا يكون إلا عن طريق تأويلها مجازياً.

فقد وجدوا في القرآن الكريم، والحديث النبوي نصوصاً إذا أخذت حرفياً، أدت إلى التشبيه والتجسيم وما يكون من ذلك من الصفات والعواطف والإحساسات البشرية، وإذا ثبت عندهم بالدليل العقلي أن الله تعالى منزّه عن الجسمية والجهة، قالوا: لا بد من صرف هذه الصفات عن معانيها الظاهرة الحرفية إلى معانٍ أخرى مجازية لئلا يكون ذلك سبباً في الطعن في هذه النصوص.

واستعانوا في هذه السبل الوعرة والشاقة، بالقرآن نفسه في آياتٍ أخرى، وبلغه القرآن يجدون فيها ما يساعدهم في تقرير المعاني التي يرونها.

والباحث في كتب التفاسير والفرق: يجد أن المعتزلة لم يأتوا بما أتوا به من صرف آيات الصفات عن معانيها الظاهرية الحرفية إلى معانٍ أخرى مجازية من فراغ، وإنما مهد لهم رجال من السلف — عاشوا في القرن الأول الهجري — أمثال (مجاهد المكي) وعطية الكوفي أو العوفي، وغيرهما من رجال السلف.

فقد قاموا بمحاولات فكرية لتفسير المتشابهات تفسيراً مجازياً له مبرراته في اشتقاقات اللغة العربية وأصولها.

يروى عن مجاهد المكي المحدث والمفسر المشهور: أنه كان من أوائل من قرأ الآية الكريمة: ﴿ وَمَا يَسْلُمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ (آل عمران: ٧) من غير توقف، فاتحا بذلك باب التأويل لمن جاء بعده.

أما المعتزلة فقد جاهدوا من أجل جعل التأويل المجازى منهجاً عاماً منسقاً لأنهم أدركوا — كما أدرك غيرهم من علماء الكلام في الأديان الأخرى — أنه لا سبيل للقضاء على التشبيه كفكرة، إلا إذا صرفت الصفات الخيرية الواردة في المتشابهات، عن ظواهرها إلى معانٍ أخرى مجازية مستساغة، من غير إخلال بقواعد اللغة العربية وخصائصها.

ويذكر العلماء: أنه رغم ما في التأويل الاعتزالي أحياناً من تعسف وإفراط، ومحاولات لجعل النص القرآني دليلاً على صحة آرائهم الدينية، والمذهبية، التي آمنوا بها، إلا أن العمل الذي بدؤه كان السلاح الوحيد للقضاء على التشبيه والمشبهة.

وقد أخذ به — مع تعديلات وإضافات — عامة المسلمين من شيعة وأهل سنة، ماتريديية وأشاعرة، وفي ذلك يقول الإمام الرازي: جميع فرق الإسلام يقرون بأنه لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار.

والباحث في أعماق التراث الإسلامي الأول، يجد أن مشكلة التشبيه ظهرت في الفكر، في نهاية القرن الأول الهجري، وسبب ظهور المشكلة يعود إلى سبب داخلي، ومن ذات الإسلام نفسه، لوجود مجموعات من الآيات والأحاديث تضيف إليه تعالى، صفات خيرية، تشير إذا فسرت حرقياً إلى التشبيه والتجسيم، وما يكون من ذلك من الصفات والعواطف والإحساسات البشرية، والآيات والأحاديث التي ورد فيها ذكر الصفات الخيرية مثل: ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح: ١٠) ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (المائدة: ٦٤) ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (ص: ٧٥) ﴿ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧).

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (القلم: ٤٢) ﴿ وَاللَّفْظِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴾ (٢٩) ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (القيامة: ٢٩، ٣٠).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَسَبَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْمَلَكِطِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧) و ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) و ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر: ١٤) و ﴿وَالصَّنْعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه: ٣٩) و ﴿وَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨). ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) و ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٤) و ﴿وَيَجْلِسُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمِينًا﴾ (الحاقة: ١٧). ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) و ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ (البقرة: ٢١٠).

وقال الرسول ﷺ: «إذا كان الثلث الأخير من الليل نزل ربنا إلى السماء الدنيا فيقول: هل من داع فاستجب له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له».

ويذكر العلماء أنه: بعد ظهور الإمامين أبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) وأبي منصور الماتريدي السمرقندي (ت ٣٣١هـ) أخذ المتكلمة من أشاعرة وماتريدية، بالتأويلات المجازية، متبعين في ذلك الأسلوب الذي بدأه المعتزلة من قبل.

لقد كان هناك المشبهة والمجسمة الذين يثبتون كل ما جاء في القرآن الكريم من فوقية، وتحتية، واستواء على العرش، ووجه، ويد، ومحبة، وبغض، وما جاء في السنة من ذلك أيضاً من غير تأويل وبالظاهر الحرفي، ممن تمسكوا بإثبات الظاهر، فصاروا يتهمون من قبل الأشاعرة بالتشبيه والتجسيم، ومن هؤلاء أبو الحسن الزاغوني، والقاضي محمد بن الحسين أبو يعلى، وأبو عامر القرشي الذي اشتهر عنه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقِي وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أراد أن يدفع — بحجة بالغة — التفسير المجازي فضرب على ساقه وقال: (ساق حقيقة شبيهة تماماً بهذه، وأشار إلى ساقه).

وسبب انتشار دعوة كهذه قصور كثير من الناس عن تفسير متشابهات القرآن وتمييز وجوه أمثالها ومجازاتها الرائعة عند العرب، لذا تصدى هؤلاء وأمثالهم في القرن السادس الهجري الإمام الفقيه الحنبلي الخطيب ابن الجوزي، فصنف في الرد عليهم رسالته الموسومة (دفع شبهة التشبيه).

ويقول فيها: رأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح، فصفنوا كتاباً شانوا به المذهب، رأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعوا أن الله خلق آدم على صورته فأثبتوا له صورة ووجهين زائدين على الذات، وفماً، ولهوات، وأضراساً، وأضواء لوجهه، ويدين، وإصبعين، وكفاً، وخنصرأ، وإهامأ، وصدراً، وفخذأ وساقين، ورجلين، وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس.

قد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم في ذلك من النقل، ولا من العقل ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجه الظواهر من صفات الحدوث، ولم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل، حتى قالوا صفة ذات.

ثم لما أثبتوا أنها صفات، قالوا: لا نعملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معاني بر ولطف، ولا ساق على شدة، بل قالوا: نعملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين.

والشئ إنما يحمل على حقيقته إن أمكن فإن صارف حمل على المجاز، ثم يتخرجون من التشبيه، ويأنفون من إضاعته إليهم ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه، وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع، وقلت: يا أصحابنا: أنتم أصحاب وأتباع وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله وهو تحت السياط، كيف أقول ما لم يُقل، فإياكم أن تبدعوا من مذهبه ما ليس منه.

ثم قلت: الأحاديث تحمل على ظاهرها فظاهر القدم الجارحة، ومن قال: استوى بذاته المقدسة، فقد أجراه مجرى الحسيات.

وينبغي ألا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل فإننا به عرفنا الله تعالى، وحكمنا له بالقدم فلو أنكم قلت: نقرأ الأحاديث ونسكت، ما أنكر أحد عليكم، إنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل السلفي ما ليس فيه.

ويرى الباحثون: أنه إذا كان المعتزلة والأشاعرة والخطيب ابن الجوزي الحنبلي يؤولون، فإن الشيعة الإمامية يفسرون الأسماء والصفات بالقرآن، يقول الشيخ المفيد في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وأما لفظة ﴿اسْتَوَى﴾ وهي التي جعلت الآية من المتشابهات عند القوم فمعناها: التمكن التام، والاستيلاء الكامل، بدليل ما يظهر من آية: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْقُلُوبِ﴾ (المؤمنون: ٢٨) أى تمكنت، وآية ﴿فَاسْتَعْلَظْ فَاسْتَوَى عَلَى سُقُوفِهِ﴾ (الفتح: ٢٩) أى تمكن واستقام، وآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَأَيْدِيَهُ حَكْمًا﴾ (القصص: ١٤).

فالاستواء فيهن بمعنى التمكن التام دون الجلوس كما زعمت المشبهة، وكثير في محاورات العرب استعمال (استوى) بمعنى التمكن التام: والاعتدال الكامل كقول بعيث الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq

يريد تمكنه التام، غير أننا نتوخى على الدوام تفسير القرآن بالقرآن، والاهتداء منه إليه، وقد دلنا على معنى الاستواء أن الله سبحانه قد ظهر من خلقه للسموات والأرض تمكنه التام، واقتراده الكامل على عالم الأرواح.

أى دائرة ملكه الخاص به، والمهيمنة على عالم الأجسام، ويؤيد ذلك قوله تعالى بهذه الآية: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه: ٦) مشيراً إلى أنه استوى قبل كل شيء، على عالم الملكوت، والأرواح، ثم تمكن بذلك من تملك عالم الناسوت والأجرام.

إن انطلاقة علماء المذاهب الإسلامية، كانت من القرآن الكريم، والقرآن كان رائدهم فيما ذهبوا إليه، وكما قال الأنباري: (إن القرآن يدل على الاختلاف، فالقول بالقدر صحيح وله أصل في الكتاب، والقول بالإيجاب صحيح، وله أصل في الكتاب، فمن قال بهذا مصيب، ومن قال بهذا مصيب).

وقد ساعد الجواز علماء المذاهب الكلامية على قول كثير من الآراء، ويحدد ابن قتيبة جوانب الجواز فيما يلي: (الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والإيضاح، ومخاطبة الجميع، والجمع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب

الاثنين، والقصد بلفظ الخُصُوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، مع أشياء أخرى كثيرة).

وإذا كان الاختلاف يخرق جميع الأمم والملل المعروفة، فإن للاختلاف الذى وقع (بين المذاهب الكلامية) بنيتها الأصلية المستمدة من خصوصية النص القرآنى، والحديث النبوى.

ونعنى بالخصوصية هذا ما منح النص القرآنى إعجازه، وما امتاز به على سائر النصوص، فالخطاب القرآنى كلام تتسع معانيه، وتتعدد وجوه الدلالة فيه.

إنه كلام لا يمكن استقصاء معانيه أو حصر دلالاته، يقول الزركشى: (معانى القرآن لا تستقصى، ولا نهاية لفهم كلام الله) ولا يمكن لأحد أن يقبض عليه، أو يفوز بحقيقته، من هذا تباين التفاسير والتأويلات، واختلاف الطرق، والمذاهب، وتعدد الفرق، والمقالات.

إذا نحن نحتاج أول ما نحتاج إلى الإعلان عن (حق الاختلاف) الذى هو حق من حقوق الإنسان، إن لم يكن أبرزها، حتى يكون اختلاف الآخر عن الأنا أمراً لا جدال فيه، أى حتى يتم قبول كل فريق بالفريق الآخر، وكما هو فى معتقده ومذهبه.

وما دمنا لم نصل إلى الوحدة بعدم اعترافنا بحق الغير، فالأولى أن نعترف بذلك، فإن وحدة تحاول أن تستتبع الآخر، أو تلحقه، أو تقهره، وتستبد به، لن تعمر طويلاً، إذ سرعان ما يتصدع البناء، كذلك فإن الخطاب الذى لا يزيد عن تكرار أجوف لهوية فاقدة لمقوماتها، لن يصنع وحدة أبداً.

هكذا ينبغى للجميع أن يكتبوا ببيان الاختلاف، معترفين ببعضهم مقرين بأن الواحد هو شطر الآخر، وبأن العقائد والمذاهب وجوه لحقيقة واحدة، والاعتراف بحق الغير، وبأن له حقيقته، وقسطه من الوجود يتطلب ذهنًا مفتوحًا، وعقلًا نيرًا. ولا يخفى أننا إذا نجحنا معتزلة وأشعرية، وإمامية، وحنابلة، فى الإقرار بالاختلاف، وأنه ضرورة من ضرورات الحياة، استطعنا أن نبدأ فى الطريق.

وحسب الأمة أن تستثمر اللقاء على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلماً إلا بها، ثم تعى بعد ذلك دور العقل الإسلامى وانطلاقه.

وتدرك في وضوح أن الخلاف والاختلاف ضرورة حياتية وحضارية، والأمة الإسلامية كانت وما زالت تملك رصيذاً ضخماً من الأصول والقواعد يمكن الأمة من تنمية فلسفتها الخاصة بها، والتي تجمع شملها، وتوحد صفوفها. وقد أتم الله على الأمة وحدة الأصل الإنساني ووحدة العقيدة، ووحدة المصدر، ووحدة الشعور، ووحدة الصف، ووحدة العبادات.

وكتاب: «غاية المرام من علم الكلام» جاء في علم الكلام واصطلاح «علم الكلام» قد أطلق على نظام خاص من الفكر، قام بين المسلمين قبل الترجمة، وسابقاً على وجود الفلسفة وأسسها. وأصحاب هذا الفن كانوا يسمون «متكلمين» في مقابلة نوع آخر من المفكرين الذين ابتدعوا بالكندى، وعرفوا باسم «الفلاسفة».

فاصطلاح علم الكلام ظهر بين المسلمين على وجه طبيعي، حين ثار الجدل بين المسلمين حول مسائل العقيدة<sup>(١)</sup>.

ولا بد أن ندرك: أن هناك فارقاً بين الإسلام وبين الفكر الإسلامي، فالإسلام هو دين الله تعالى، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ومصدر الإسلام، هو: الكتاب والسنة.

أما الفكر الإسلامي فهو العمل العقلي للمسلمين في فهم ما جاء في الكتاب والسنة، ومن ثم فإن الإسلام لأنه يعتمد على وحى معصوم، لا اختلاف ولا تناقض فيه.

أما الفكر الإسلامي فهو يمكن أن يقع فيه الاختلاف حسب اجتهادات المجتهدين، ومستوياتهم الفكرية<sup>(٢)</sup>.

وإن الباحث في تطور الفكر الإسلامي، الذي يمثل العمل العقلي للمسلمين يجد أن هذا الفكر قد مر في مرحلتين:

(١) الدكتور عبد العزيز سيف النصر، فلسفة علم الكلام، ص ٧، ٨ ط الجبلاوى، بالقاهرة ١٩٨٣م.

(٢) المصدر السابق، بتصرف.

المرحلة الأولى: كانت في ظهور نظام موحد من الاعتقاد، مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية، وقد حكمت المرحلة الأولى بأناس أتقياء ورعين، كان همهم الاقتداء برسول الله ﷺ، ونشر الدين<sup>(٣)</sup>.

والمرحلة الثانية: كانت في ظهور ما دار حول مسائل اعتقادية، انتزعتها العقل الإنساني، من واقع ملء بالتساؤلات.

وإذا كان قد وضح أن هناك فرقاً بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة، وبين الفكر الإسلامي، الذي هو العمل العقلي للمسلمين، في فهم ما جاء في الكتاب والسنة، فإن الأمر يقتضى أن نعرف: أن الإسلام يتكون من نوعين من التكليف:

- التكليف البدنية.

- التكليف القلبية.

والتكليف البدنية تتكون من التشريعات الإلهية التي تحكم جميع أفعال المسلمين والعلم الذي يتناولها هو الفقه، ولهذا كان «الفقه معرفة أفعال الله في المكلفين بالوجوب، والندب، والكراهية، والإباحة، وهي متلقة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة»<sup>(٤)</sup>.

أما التكليف القلبية فهي العقائد التي تقررت في الدين والتصديق بما في القلوب، والاعتقاد في الأنفس مع الإقرار بالألسنة، وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام<sup>(٥)</sup>.

فعلم الكلام يعنى بالإلهيات، والنقاش في هذا العلم هو الذي كون علم الكلام، وإذا كان الأمر — كما بينت — فإن الفرق بين الإسلام القائم على الكتاب والسنة، وبين الفكر الإسلامي القائم على العمل العقلي للمسلمين ينتهى

(٣) المصدر السابق ص ٨.

(٤) انظر ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٥٣ ط، بيروت.

(٥) راجع الدكتور عبد العزيز سيف النصر، فلسفة علم الكلام، ص ٩ بتصرف.

إلى علاقة وطيدة الصلة، صنع هذه العلاقة، النقاش الذى دار حول العقائد الإيمانية<sup>(٦)</sup>.

لقد اتخذ الكلام معنى اصطلاحياً، وتفرّد بمنهج عقلى خاص، استهدف الدفاع عن العقائد الإيمانية العقلية وسميت الأقوال التى تصاغ كتابة أو شفاهاً على نمط منطقى أو جدلى: «كلاماً» ولا سيما تلك التى تعالج المسائل الاعتقادية<sup>(٧)</sup>.

وعلم الكلام هو: العلم بأحكام الألوهية، وإرسال الرسل، صدقها فى أخبارها وما يتوقف شىء من ذلك عليه، خاصاً به، وتقرير أدلتها بقوة، وهى مظنة لرد الشبهات، وحل الشكوك<sup>(٨)</sup>.

ويقول الغزالي: إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير واف بمقصودى، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش البدعة، فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق، على ما فيه صلاح دينهم وديناهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة، بكلام مرتب، يكشف عن تلبسات أهل البدعة المحدثه، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله<sup>(٩)</sup>.

ويذكر عضد الدين الإيجي علم الكلام بأنه: «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج، ودفع الشبه»<sup>(١٠)</sup>.

(٦) الدكتور أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ص ٥٠ ط دار الطباعة الحمديدية ١٤٠٠هـ.

(٧) الدكتور محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، ص ١٣١، ١٣٢.

(٨) السنوسى، السنوسية الكبرى، ص ٩٦.

(٩) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص ٨٧، ٨٨ ط، دار الكتاب اللبنانى.

(١٠) عضد الدين الإيجي، المواقف جـ ١ ص ٣٢ ط اسطنبول.

أما ابن خلدون فإنه يقول: «علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»<sup>(١١)</sup>.

وطاش كبرى زاده، والتهاقوى، يقولان عن علم الكلام: «علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها»<sup>(١٢)</sup>.

والجرجاني يقول: «هو العلم بالقواعد الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة».

ومن هذه التعريفات المختلفة يمكن استنتاج جملة أمور هي:

— إن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث، والنظر، والاستدلال العقلي، كوسيلة لإثبات العقائد الدينية، التي تثبت بالوحي، ولهذا فهو يعرف أحياناً بـ «علم النظر والاستدلال».

— إن وظيفة علم الكلام إنما هي دفع الشبه، ورد الخصوم، والاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية.

— ومن العلماء من يرى أن لعلم الكلام وظيفتين مزدوجتين هما:

أولاً: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

وثانياً: دفع الشبه ورد الخصوم عنها<sup>(١٣)</sup>.

وعلم الكلام نشأ من أحوال البيئة الإسلامية نفسها، فهو من هذه الناحية نتاج البيئة الإسلامية وحدها، ويبدو أن هذه الأحوال الإسلامية كانت منبعثة: من الفضول العقلية، ومن محاولة إقناع غير المسلمين في أول الأمر بعقائد الإسلام، ومن التشدد في المبادئ، ومن السياسة<sup>(١٤)</sup>.

(١١) ابن خلدون، المقدمة ص ٣٦٣.

(١٢) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة، ج ٢ ص ٢٠ والتهاقوى، كشف اصطلاحات الفنون، ج ١ ص ٢٠ ط كلكتا، الهند ١٨٦٢ م.

(١٣) الدكتور عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص ١٣٥، ط مؤسسة الرسالة ١٤٠٤ هـ بيروت.

(١٤) د. عمر فروخ، الفكر العربي، ص ٨٧، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦ م.

فعلم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين في الجدل والمراء، وإنما نشأ دفاعاً عن الدين، ودرعاً للخطر الذي كاد يزلزل قضايا الإسلام والمسلمين من نفوس المسلمين<sup>(١٥)</sup>.

ولا يخفى أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية، ونصرانية، ومجوسية وصابئة، وبراهمة، وغيرها، وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة في ثوب دينهم الجديد<sup>(١٦)</sup>.

ولما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامي أخذت تظهر أفكار مجانبة للصواب من أصحاب الديانات القديمة، مما أحدث اضطراباً وقلقاً، ووسط هذا الاضطراب الفكري، والمبادئ التي كونتها كل فرقة لنفسها، قام جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين كما هي في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومن أشهرهم الحسن البصري، ثم كان الإمام أبو حنيفة وأتباعه<sup>(١٧)</sup>.

وفي أواخر القرن الثالث الهجري ظهر أبو منصور الماتريدي، واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الباطلة، وتكونت منه ومن أتباعه فرقة الماتريدية، وفي أواخر القرن الثالث، وأوائل الرابع، كان الإمام الطحاوي، وأبو الحسن الأشعري، وتوالى علماء الكلام يدافعون عن عقائد المسلمين، كالإمام الجويني، والغزالي، والفخر الرازي، وعضد الدين الإيجي، والبيضاوي، وسعد الدين التفتازاني، والسيد الشريف الجرجاني، وغيرهم<sup>(١٨)</sup>.

وقد تكونت على مدى قرون زخائر كلامية واسعة، مما جعل علم الكلام الإسلامي من أكثر العلوم ازدهاراً، ونماءً، وأصبح هذا العلم يشكل تراثاً مترامياً الأطراف، موصول العطاء.

(١٥) انظر الدكتور أحمد السايح، علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة، ص ٥٧.

(١٦) الدكتور سامي عفيفي حجازي، مدخل لدراسة علم الكلام، ص ١٨ ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

(١٧) الدكتور علي جبر، مذكرة في علم التوحيد، ص ٢٠.

(١٨) الدكتور سامي عفيفي حجازي، مدخل لدراسة علم الكلام، ص ١٩.

ولما كان الدكتور أحمد السايح مشرفاً على رسالة الدكتوراة ١٤١٩هـ «سيف الدين الآمدى وأراؤه الكلامية» في جامعة أم القرى بمكة المكرمة للباحثة: إحسان عبد الغفار مرزاً، فقد عايش آراء سيف الدين الآمدى وأراءه الكلامية وردود شيخ الإسلام ابن تيمية عليه في: «درء تعارض العقل والنقل».

ودار بين الدكتور أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبة رئيس المركز العربى للأبحاث والدراسات والحاج أحمد أنسى عبد المجيد صاحب مكتبة الثقافة الدينية حديث طويل عن سيف الدين الآمدى وكتابه: «غاية المرام في علم الكلام، وحاجة الناس إليه في هذا الظرف العصيب الذى تمر فيه الأمة وبدا للجميع حاجة الناس خاصة العلماء إلى «غاية المرام في علم الكلام».

لذا بدا لنا أن نقدمه للعلماء والباحثين، بعد أن راجعنا المخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة، وراجعنا كذلك النسخة المطبوعة في المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١م بتحقيق الدكتور حسن محمود عبد اللطيف.

والحق يقال: أن الدكتور حسن عبد اللطيف قام بدور مرض في التحقيق، وقد استفدنا منه كثيراً.

ولما كان الكتاب مهماً والناس في حاجة إلى علم الكلام، رأينا تقديمه للقراء وأهل العلم.

المستشار توفيق على وهبة

أ. د أحمد عبد الرحيم السايح

## التعريف بالإمام العلامة سيف الدين الآمدي الشافعي

هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الآمدي ويكنى بأبي الحسن ولقبه: سيف الدين الآمدي أو السيف الآمدي ويطلق عليه السيف اختصاراً. فإذا قيل: السيف، انصرف القول إلى السيف الآمدي أو سيف الدين الآمدي. والتغلبي نسبة إلى تغلب وهي قبيلة عربية مشهورة تنسب إلى تغلب بن وائل. والآمدي نسبة إلى مدينة آمد التي ولد فيها. وينسب الآمدي أيضاً إلى البلاد التي انتقل إليها وسكن فيها خلال رحلاته العلمية: إما لطلب العلم أو للتدريس فيقال البغدادي ثم المصري ثم الحموي ثم الدمشقي.

وبالنسبة لانتمائه المذهبي فقد كان حنبلياً ثم انتقل إلى المذهب الشافعي. مولده: ولد سيف الدين في عام ٥٥١هـ في بلدة آمد وقرأ القرآن وحفظ كتاب الهداية في مذهب الإمام أحمد بن حنبل وتعلم القراءات وقرأ على مشايخ بلده مذهب الشافعي.

### رحلاته العلمية:

أولاً: انتقل عام ٥٦٥هـ إلى بغداد فقرأ بها القراءات وتفقه على أبي الفتح ابن المنى الحنبلي وسمع الحديث من أبي الفتح بن شاتيل.

وخلال إقامته ببغداد انتقل إلى المذهب الشافعي وصحب أبا القاسم بن فضلان وحفظ طريقة الخلاف للشريف العباسي المراغي الذي كان أنظر الفقهاء، وصنف طريقته المشهورة في الخلاف كما صنف في الجدل كتاباً ولم يكمله، وقد تعلم سيف الدين على يديه الجدل والخلاف.

وتذكر المراجع أن سبب انتقاله من المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي أنه تعرف على شيخ الشافعية في بغداد جمال الدين أبي القاسم يحيى بن الفضل

المعروف بابن فضلان، وكان حجة في الفقه الشافعي وفي علوم الجدل والمناظرة وأصول الفقه والكلام والمنطق مع ظرف ولطافة ونزوع إلى الأدب<sup>(١)</sup>.

ثانياً: سافر إلى الشام لإكمال دراسته فتعلم بها العلوم العقلية ومكث بها عشر سنوات واشتغل بعلوم المعقول وحفظ منه الكثير ومهر فيه ولم يكن في زمانه أحفظ منه لهذه العلوم العقلية.

ولقد أخذ علم الأوائل عن جماعة من نصارى الكرخ ويهودها وتظاهر بذلك فجفاه العلماء وعابوه ووقعوا في عقيدته فلم يجد له مكاناً بينهم فانتقل إلى مصر<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: انتقل إلى مصر عام ٥٩٢هـ وتولى التدريس فناظر وحاضر وتصدر الجامع الظافري مدة واشتهر علمه وذاع صيته واجتمع عليه الناس طلباً للعلم والانتفاع به وألف تصانيف في علوم الأوائل ونقلت عنه وقرأها عليه من رغب في ذلك، كما قرئ عليه كتبه في أصول الدين وأصول الفقه.

ولذلك كثر حاسدوه، كما هي عادة الحساد في كل زمان ومكان وتصديهم وحقدهم وحسداهم للناجحين والناجحين وبثهم الشكوك والشبهات حوله وأشاعوا عنه فساد عقيدته بل نسبوه إلى الضلال والكفر مما دعاه إلى ترك مصر والتوجه إلى الشام ونحن نسمى هؤلاء مجزب أعداء النجاح سواء أكانوا قدامى أو معاصرين. قال ابن خلكان عن هذه الفتنة التي حاقت بالسيف الأمدي:

«ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ونسبوه في العقيدة إلى الفساد والمخالل الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء، أو إلى الكفر والتضليل، وكتبوا محضراً بذلك ووضعوا فيه خطوطهم بما يستباح به الدم، قال: بلغني عن رجل منهم فيه عقل ومعرفة: أنه لما رأى التحامل عليه وإفراط التعصب كتب في المحضر وقد حمل إليه ليكتب فيه مثل ما كتبوا، فكتب:

(١) عقيدة سيف الدين الأمدي في الله وصفاته دراسة ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة — رسالة دكتوراة في العقيدة — دكتورة إحسان بنت عبد الغفار عبد الله مرزا — إشراف: دكتور أحمد السايح ص ٥٤، ٥٥ عن الدكتور حسن عبد اللطيف الشافعي ص ٩.

(٢) القفطي — إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٦١.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله فالقوم أعداء كلهم وخصوم<sup>(١)</sup>  
فلما أحسَّ الآمدي بالخطر المحدق به هاجر إلى الشام.

رابعاً: رحل إلى الشام مستخفياً، وفي ذلك يقول السبكي: ثم دخل الديار المصرية وتصدر للاقراء، وأعاد يدرس الشافعي، وتخرج به جماعة ثم وقع التعصب عليه فخرج من القاهرة مستخفياً، وقدم حماة فأقام بها ثم قدم دمشق<sup>(٢)</sup>.

وقد أُلِّف في حماة في الأصلين والحكمة والمنطق والخلاف، ولما قدم دمشق ولاة الملك المعظم بن العادل التدريس بالمدرسة العزيزية واستمر بها حتى عام ٦٣١، وكان ذائع الصيت كثير الطلاب والدارسين.

ولما تولى الأشرف موسى عزل سيف الدين الآمدي من التدريس ونادى في المدارس أن لا يشتغل أحد من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقہ وقال: «من ذكر غير التفسير والحديث والفقہ أو تعرض لكلام الفلاسفة نفتيه».

فأقام الآمدي خاملاً في بيته إلى أن توفى<sup>(٣)</sup>.  
رأى العلماء فيه:

أولاً: ابن خلكان: قال قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان في بعض تعاليقه: ما عسى أن يقال في أعجوبة الدهر وإمام العصر وقد ملأت تصانيفه الأسماع، ووقع على تقدمه وفضله الإجماع.  
إمام علم الكلام، ومن أقر له فيه الخاص والعام، صاحب المصنفات المشهورة والتعليق المذكورة، ومن أكبر جهانذة الإسلام، ومن يرجع إلى قوله في الحل والإبرام والحلال والحرام.

(١) الإمام اليافعي المكي: مرآة الجنان وعبر اليقظان جـ ٤ ص ٧٤ وسير أعلام النبلاء جـ ٣٢ ص ٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) الآسنوي: طبقات الشافعية ص ٧٣ وابن شهاب طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٨٠/٧٩.

(٣) القفطي — أخبار العلماء ص ١٦١، والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥١/١٦١ عن كتاب عقيدة سيف الدين الآمدي للدكتورة إحسان عبد الغفار مرزا — مرجع سابق ص ٥٧، ٥٨، بتصرف.

ولما بلغ أربع عشرة سنة انحدر إلى بغداد واشتغل على الإمام أبي الفتح نصر ابن فتيان ابن المنى الحنبلي في الخلاف على مذهبه مدة، ثم صحب الإمام العلامة أبا القاسم يحيى بن أبي الحسن على بن الفضل بن هبة الله بن بركة البغدادي بن فضلان الشافعي وأخذ عنه الخلاف وتميز فيه، وحفظ طريقة الشريف والزوائد لأسعد الميهني.

وحفظ أربعين جديلاً على ما قيل.

وقدم إلى حلب واجتمع بالشهاب السهروردي الحكيم المقتول، وحكى عنه أنه قال: رأيت كأني شربت البحر وهذا المنام رآه ابن تومرت، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية، أخبرني عنه بعض أصحابه أنه سمعه يقول: لما أردت الدخول إلى الديار المصرية كررت على طريقة الشريف، ثم دخل مصر والإسكندرية، واشتغل عليه الطلبة، وعقد له مجلس المناظرة، واستدل بالتعيين، ثم خرج منها فاجتاز بحماة، فأرغبه صاحبها وأحسن إليه، وأعطاه مدرسة فأقام بها مدة.

ثم إن المعظم عيسى بن العادل كتب إليه ووعدته إن قدم إليه أن يحسن إليه، وحبب إليه سكنى دمشق، وكان سيف الدين يحبها ويؤثر المقام بها، فخرج من حماة ليلاً ولم يعلم به صاحبها، ودخل دمشق فأحسن إليه المعظم وولاه المدرسة العزيزية المجاورة لثربة الملك الناصر صلاح الدين، وأقبل على الأشغال والاشتغال، والتصنيف، وعقد له مجلس المناظرة ليلة الجمعة وليلة الثلاثاء بالحائط الشمالي من جامع دمشق، وكان يحضره الأكابر من كل مذهب، ورحل إليه الطلبة من جميع الآفاق من سائر الطوائف لطلب العلم.

وكان خير الطباع سليم القلب حسن الاعتقاد قليل التعصب، رأيت عنده جماعة من أصحاب الإمام أحمد يشتغلون عليه، وكذلك أصحاب الإمام أبي حنيفة ومالك رضي الله عنهم، وهو في غاية الإكرام لهم والإحسان إليهم حتى قيل له: يا مولانا تراك تؤثر الحنابلة وتزيد في الإحسان إليهم! فقال على سبيل المزاح: المرتد لا يجب كسر المسلمين، يعني أنه كان قديماً حنبلياً.

حكى لي تلميذه القاضي أبو الروح عيسى ابن القاضي أبي العباس أحمد بن داود الرشتي المعروف بابن قاضي تل باشر، قال: سمعت شيخنا الإمام سيف الدين يقول: رأيت في النوم كأن قائلاً يقول لي: هذا البيت للإمام الغزالي، قال: فدخلت فوجدت تابوتاً فكشفته فوجدت الغزالي فيه وعليه كفنه، وهو في القطن، قال: فكشفت عن وجهه وقبلته، فلما انتهيت قلت في نفسي: يليق أن أحفظ كلام الغزالي، فأخذت كتابه المستقصى في أصول الفقه فحفظته في مدة يسيرة.

قال: وسمع الحديث ببغداد من الشيخ أبي الفتح عبيد الله بن عبد الله بن محمد ابن نجا بن محمد بن شاتيل الدباس البغدادي، وحدث عنه بدمشق رحمه الله. أنشدني الأديب الكاتب الشاعر فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي بن أبي البركات المصري المعروف بابن بصاقة لنفسه، وكتب بها إلى الإمام سيف الدين الآمدي في حق صاحبنا عماد الدين أبي بكر محمد بن عثمان ابن إسماعيل بن خليل السلماني الكاتب، وقد عزم أن يقرأ على الشيخ سيف الدين شيئاً من تصانيفه يوصيه بها وينبهه على مكانته: من البسيط.

يا سيداً حمل الله الوجود به	وأهله من جميع العجم والعرب
العبد يذكر مولاه بما سبقت	وعوده لعماد الدين عن كذب
ومثل مولاى من جاءت مواهبه	من غير وعد وجدواه بلا طلب
فأصف من بحرك الفياض مورده	وأغنه من كنوز العلم لا الذهب
واجعل له نسباً يدلى إليك به	فلحمة العلم تعلق لحمة النسب
ولا تكله إلى كتب تنبئه	فالسيف أصدق أنباء من الكتب

فوقعت هذه الأبيات من الإمام سيف الدين أحسن موقع، وأقبل على العماد وأحسن إليه، وقرأ بعد ذلك عليه.

وأخبرني بعض أصحاب الإمام سيف الدين أن بعض الفضلاء المشهورين والمدرسين المذكورين ذهب عنى اسمه حضر درس الإمام سيف الدين ولزم معه الأدب، وجعل دأبه الاستماع والانتفاع دون الجدل وترك القيل والقال، فقال له الإمام سيف الدين: يا فلان الدين، لم لا تشرقنا وتشرف أسماعنا بفوائدك وفرائدك؟ فكان جوابه أن أنشد من الطويل:

وفي حيناً نحن الموالى لأهله  
فدعا له سيف الدين أيضاً وبجمله وأكرمه.

رأى الإمام عز الدين بن عبد السلام: وسألت شيخنا الإمام العلامة عز الدين بن عبد السلام عن درس الإمام سيف الدين، فقال: ما سمعت أحداً يلقى الدرس أحسن منه، كأنه يخطب، وإذا غير لفظاً من الوسيط كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه أو كما قال فإني علقته من حفظي، وكفاك به جلاله ونبله أن الإمام عز الدين من أصحابه ومن كبار طلابه، ملازماً لدرسه راضياً بطريقته مع خيرة علانيته وسريته.

ولقد سمعته يوماً يقول: ما عرفنا قواعد البحث إلا من الشيخ سيف الدين أو ما هذا معناه.

وكان يعظمه ويحله ويحله.

وسمعت عنه أنه قال: لو ورد على الإسلام متكلم أو مشكك أو ما هذا معناه لتعين الإمام سيف الدين لمناظرته لاجتماع أهلية ذلك فيه، أو كما قال. وسمعت الإمام جمال الدين أبا عمرو عثمان بن أبي بكر المالكي المعروف بابن الحاجب يقول: ما صنف في أصول الفقه مثل كتاب سيف الدين الآمدي الإحكام في أصول الأحكام، ومن محبته له اختصره رحمه الله تعالى.

ولما مات الشيخ سيف الدين رحمه الله تعالى، أخبرني صاحبنا زين الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن أبي المحاسن بن طاهر الأنصاري المقدسي، قال: أخبرني بعض الفضلاء أنه رأى الشيخ سيف الدين في المنام بعد موته فقال له: يا مولانا، ما فعل الله بك؟.

فقال: أجلسني بين يديه وقال لي: استدل علي وحدانيتي بين ملائكتي، فقلت: الحوادث اقتضت تعلقاً بمحدث لتخرج عن حد الاستحالة، وكان لا بد من محدث، ثم كان القول بالاثنتين مثل القول بالثلاثة والأربعة إلى ما لا يتناهى، فلم يترجح منها شيء فسقط ما وراء الواحد وبقي الواحد صحيحاً أو كما قال ثم أدخلني الجنة، وكان صاحب أمد الملك المسعود ركن الدين مودود بن الملك الصالح أبي الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن

الدولة سقمان بن أرتق بن أكسب قد رغب أن يكون الشيخ سيف الدين الآمدي في آمد وكتابه ووعدته أن يجعله قاضي القضاة ويقطعه جاريًا كبيرًا، وجهد في ذلك.

وكان أصحاب الشيخ يؤثرون ذلك ليتسع الرزق عليهم، فإن الشيخ كان يؤثر الراحة والقناعة، وكان يحب سكنى دمشق، فلما تكرر طلبه وعد بالإجابة، وجعل يدافع من وقت إلى وقت، فلما أخذ الملك الكامل آمد من صاحبها ورتب فيها النواب، أراد أن يولى فيها قاضيًا من جهته، فأجرى الحديث في ذلك والسلطان الملك الأشرف بن العادل وصاحب آمد يسمع فقال صاحب آمد: يا مولانا كان المملوك قد كاتب الشيخ سيف الدين الآمدي في أن يجعله قاضيًا في آمد وأجاب إلى ذلك، وأراد أن ينفع الشيخ سيف الدين بهذا القول، فنظر الكامل إلى الأشرف كالمنكر عليه أن يكون في بلده مثل هذا الرجل وقد عزم على مفارقتها وهو يكاتب ملكًا آخر، فبقيت في نفس الأشرف إلى أن ورد دمشق، فأخذ المدرسة العزيزية منه ووقع بها لمحبي الدين بن الزكي، وقطع جاريه وأمره أن يلزم بيته، فبقي على هذه الحال إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وفاته: هدأت روح الإمام الآمدي بعد رحلة من العلم والعذاب وتكفير السفهاء له وظلم الحكام، بدأت منذ أن كان يافعًا مغادرًا قريته الصغيرة إلى بغداد واستهلكت عمره كله حتى استقر المقام آخر العمر بدمشق الشام.

وتوفى ليلة الاثنين وقت صلاة المغرب ثاني صفر سنة إحدى وثلاثين وست مائة بدمشق، ودفن يوم الاثنين بسفح قاسيون رحمه الله.

ولما مات توقف الأكابر والعلماء بدمشق عن حضور جنازته خوفًا من الملك الأشرف إذ كان متغيرًا عليه، فخرج الإمام عز الدين في جنازته وجلس تحت قبة النسر حتى صلى عليه، فلما رأى الناس ذلك بادروا إليه وصلوا عليه.

رثاؤه: أنشد الأديب العارف نجم الدين أبو المعالي محمد بن سوار بن إسرائيل لنفسه بدمشق وقد عزل سيف الدين كما ذكرنا: من السريع:

قد عزل السيف وولى القراب      دهر قضى فينا بغير الصواب  
فاضحك على الدهر وأربابه      وابك على الفضل وفصل الخطاب

وحضرنا في بستان للشيخ سيف الدين بأرض المزة بدمشق بعد موته مع جماعة من أصحابه، وفيما نجم الدين ابن إسرائيل، فكتب على سارية تحت عريش، كان كثيراً ما يجلس الشيخ سيف الدين رحمه الله إليها حين يقرأ عليه العلم: من السريع:

يا مربعاً قلبى له مربع  
جاذك غيث أبداً يعمه  
عهدى بمغناك وفى أفقه  
شمس المعالى والحجى تطلع  
وكت غمد السيف حتى قضى  
والغمد بعد السيف لا يقطع  
وأنتدى بنجم الدين ابن إسرائيل أيضاً لنفسه من أبيات يرثى بها الشيخ سيف الدين وقد جادت السماء عند دفنه بمطر عظيم: من الكامل:

بكت السماء عليه عند وفاته  
بمدامع كاللؤلؤ المنثور  
وأظنها فرحت بمصعد روحه  
لما سمعت وتعلقت بالنور  
وأوليس دمع الغيث يهيمى بارداً  
وكذا تكون مدامع المسرور  
تصانيفه: أبحار الأفكار في أصول الدين ثلاث مجلدات، واختصره في كتاب منائح القرائح مجلد — مجلد لطيف في أصول الفقه — الإحكام في أصول الأحكام في مجلدين — كتاب منتهى السؤل في علم الأصول مجلد — كتاب رموز الكنوز مجلد — لباب الأبواب مجلد في المنطق — فرائد الفوائد في الحكمة مجلد — الغرائب وكشف العجائب في الاقترانات الشرطية مجلد — شرح جدل الشريف مجلد — غاية الأمل في الجدل — الباهر في الحكم الزواهر — حكمة ثلاثة مجلدات — غاية المرام في علم الكلام مجلدين — ثلاثة تعاليق خلاف — كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات مجلدة كبيرة — مأخذ على المحصول مجلدة — المآخذ الجليلة في المواخذات الجدلية جزء.

انتهى ما نقلناه من كلام القاضي شمس الدين ابن خلكان.

ثانياً: ابن تيمية: أثنى ابن تيمية على سيف الدين الآمدى وأشاد بمكانته العلمية ووصفه بأنه من حذاق النظر ومن أذكى المتكلمين وقال: كان من أحسن

معاصريه إسلامًا وأمثلهم اعتقادًا<sup>(١)</sup> ومع ذلك يرى ابن تيمية أن سيف الدين له مزالق نبه عليها في بعض كتبه.

ثالثًا: الإمام العز بن عبد السلام: وقد أشاد بعلمه وتصانيفه وكان تلميذًا للآمدي هو وجماعة من كبار أئمة العلوم الإسلامية في عصره، وقد سبق بيان رأى العز في شيخه فيما نقلناه عن ابن خلكان فيراجع ضمن رأى ابن خلكان منعًا من التكرار.

#### رابعًا: علي بن أنجب:

قال علي بن أنجب في «أسماء المصنفين»: اشتغل بالشام على المخير البغدادي، ثم ورد إلى بغداد واشتغل بـ «الشفاء» وبـ «الشامل» لأبي المعالي، وحفظ عدة كتب وكرر على «المستصفي».

وتبحر في العلوم، وتفرد بعلم المعقولات والمنطق والكلام، وقصده الطلاب من البلاد، وكان يواسيهم بما يقدر، ويفهم الطلاب ويطول روحه.

قلت: ثم أقرأ الفلسفة والمنطق بمصر بالجامع الظافري، وأعاد بقية الشافعي، وصنف التصانيف، ثم قاموا عليه، ورموه بالانحلال، وكتبوا محضراً بذلك.

قال القاضي ابن خلكان: وضعوا خطوطهم بما يستباح به الدم، فخرج مستخفياً، ونزل حماة وألف في الأصول والحكمة المشنومة والمنطق، والخلاف، وله كتاب «أبكار الأفكار» في الكلام، و«منتهى السؤل في الأصول» و«طريقة» في الخلاف، وله نحو من عشرين تصنيفاً.

ثم تحول إلى دمشق، ودرس بالعززية مدة، ثم عزل عنها لسبب اهتم فيه، وأقام بطلاً في بيته، قال: ومات في رابع صفر سنة إحدى وثلاثين وست مائة وله ثمانون سنة، وقال سبط الجوزي لم يكن في زمانه من يجاربه في الأصول وعلم الكلام، وكان يظهر منه رقة قلب وسرعة دعة، أقام بحماة، ثم بدمشق.

(١) ابن تيمية: نقض المنطق ص ١٥٦.

ومن عجيب ما يحكى عنه أنه ماتت له قطة بحماة فدفنها فلما سكن دمشق بعث ونقل عظامها في كيس ودفنها بقاسيون، قال: وكان أولاد العادل كلهم يكرهونه لما اشتهر عنه من علم الأوائل والمنطق، وكان يدخل على المعظم فلا يتحرك له، فقلت: قم له عوضاً عني، فقال: ما يقبله قلبي، ومع هذا ولاء تدريس العزيفية، فلما مات أخرجه منها الأشرف، ونادى في المدارس: من ذكر غير التفسير والفقهاء، أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيتة، فأقام السيف خاملاً في بيته إلى أن مات، ودفن بترتبه بقاسيون.

**قلت:** أخذ عنه القاضي ابن سنى الدولة صدر الدين ومحيى الدين ابن الزكى، وكان القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة يحكى عن شيخه ابن أبي عمر، قال: كنا نتردد إلى السيف، فشككنا هل يصلى أم لا؟ فنام، فعلمنا على رجله بالخير فبقيت العلامة يومين مكانها، فعلمنا أنه ما توضعاً، نسأل الله السلامة في الدين.

وقد حدث السيف «بالغريب» لأبي عبيد عن أبي الفتح بن شاتيل، قال لى شيخنا ابن تيمية: يغلب على الآمدى الحيرة والوقف، حتى إنه أورد على نفسه سؤالاً في تسلسل العلل، وزعم أنه لا يعرف عنه جواباً، وبني إثبات الصانع على ذلك، فلا يقرر في كتبه إثبات الصانع، ولا حدوث العالم، ولا وحدانية الله، ولا النبوات، ولا شيئاً من الأصول الكبار.

**قلت:** هذا يدل على كمال ذهنه، إذ تقرير ذلك بالنظر لا ينهض، وإنما ينهض بالكتاب والسنة وبكل قد كان السيف غاية، ومعرفته بالمعقول نهاية، وكان الفضلاء يزدحمون في حلقتة، قال ابن خلكان: سمعت ابن عبد السلام يقول: ما سمعت من يلقي الدرس أحسن من السيف، كأنه يخطب، وكان يعظمه.

#### امتحان العلماء للآمدى:

قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٣ / ١٣٤): قرأت بخط الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام قال: كان شيخنا القاضي تقي الدين سليمان يحكى عن الشيخ شمس الدين ابن أبي العز أنه كان يحضر مجالس سيف الدين الآمدى.

قال: فأردنا أن نمتحنه، لأنهم رأوه يتخلف عن الصلاة، فلم يدروا يصلى الرجل أم لا؟ فوضعنا الخبر في رجله فمكث أكثر من يومين وهو باق لم يذهب! فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَتَوَضَّأُ وَلَا يَصَلِّي — نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَاقِبَةَ — فَمَاذَا كَانَ يَقُولُ الْآمَدِيُّ؟ كَانَ يَجْلِسُ وَيَقْرُرُ الْمَسَائِلَ الْعَظِيمَةَ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ وَفِي الْأَصُولِ، وَفِي الْجَدَلِ وَالْمَنَاظَرَةِ وَالْبَحْثِ.

حتى إن العز بن عبد السلام يقول: ما تعلمت أصول البحث والمناظرة إلا من السيف الأمدي، وكان يحفظ المستصفى وغيره من كتب الأصول وهي من أعقد وأصعب العلوم، وله كتاب اسمه: الإحكام في أصول الأحكام، في الأصول فكان متبحراً في العقليات وفي الجدليات، وفي النظريات، وفي علم الكلام، وفي الأصول، وسيف الدين الأمدي، كَانَ إِمَامَ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي عَصْرِهِ، وَإِمَامَ عِلْمَاءِ الْكَلَامِ فِي عَصْرِهِ، وَكَانَ يَقُولُ الْعَزَّازِيُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ: لَوْ أَنَّ زَنْدِيقًا جَاءَ لِيَجَادِلَ الْمُسْلِمِينَ لَوَجِبَ أَنْ يَنْبَرِيَ الْآمَدِيُّ لِمَنَاظَرَتِهِ، لِقُوَّتِهِ فِي الْجَدَلِ وَفِي الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ.

وهذا الرأي للإمام العز بن عبد السلام وهو أحد تلاميذ الأمدي، ولو كان يعلم أن فيه ما ادعاه البعض لأبانه، وعدم ذكر ابن عبد السلام لذلك يدحض هذا الزعم، وفيما يلي نورد جواب العلماء على تلك المزاعم:  
جواب العلماء على اتهام الأمدي بترك الصلاة:

أجاب الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله على ذلك في تقديمه لكتاب الأمدي (الإحكام في أصول الأحكام) فقال: قد يبقى الخبر أياماً على العضو مع تتابع الوضوء والغسل، وخاصة عضو من لا يرى التدليك فرضاً في الطهارة، بل يكتفى بإرسال الماء في غسله ووضوئه.

رأى الأمدي:

كتب الأمدي في كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) الصنف التاسع: في الظاهر وتأويله، المسألة الثامنة:

«ومن أبعَد التَّأْوِيلَاتِ مَا يَقُولُهُ الْقَائِلُونَ بِوَجُوبِ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ فِي الْوُضُوءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦) من

أن المراد به الغسل، وهو في غاية البعد، لما فيه من ترك العمل بما اقتضاه ظاهر العطف من التشريك بين الرءوس والأرجل في المسح من غير ضرورة»<sup>(١)</sup>.

وهذا الذى ذهب إليه الآمدى فى كتابه هو رأى بعض المذاهب الإسلامية وإن كان هذا الرأى ضعيفاً أو مرجوحاً لدى بعض مذاهب أهل السنة فهو الرأى المعتمد والمعول عليه فى المذهب الجعفرى لدى الشيعة الإمامية.

وما كان للعلماء الذين قاموا بهذا الامتحان أن يلجأوا إلى ذلك لأن مسائل الإيمان مسائل قلبية لا تكتشف بمثل هذا العمل لقوله ﷺ: «الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

ويجب على المسلمين أن يحسنوا الظن بإخوانهم وخاصة العلماء الأجلاء ومن ذلك قول الإمام جعفر الصادق: التمس لأخيك سبعين عذراً فإن لم تجد فقل لعل له عذراً لا أعلمه<sup>(٢)</sup>.

شيوخه: تتلمذ وتلقى العلم على يد جماعة من كبار الأئمة والعلماء نذكر منهم:

- ١- عمار الآمدى.
- ٢- محمد الصفار.
- ٣- ابن عبيدة.
- ٤- أبو الفتح بن المنى.
- ٥- أبو الفتح بن شاتيل.
- ٦- ابن فضلان.
- ٧- المجير البغدادى.
- ٨- شهاب الدين السهروردى.

(١) الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى ج ٤ ص ٧٧ / ٧٩.

(٢) تحفة الأكياس فى حسن الظن بالناس - تأليف على بن محمد الشهرى بالمصرى - تحقيق أ. د أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبه - طبع ونشر مكتبة الثقافة الإسلامية ٢٠٠٦.

تلاميذه: لقد تلقى العلم على يديه جماعة من أجلة العلماء ذوى المكانة العلمية المرموقة منهم:

- ١- الملك المنصور صاحب حماه.
  - ٢- العز بن عبد السلام.
  - ٣- ابن أبي أصيبعة.
  - ٤- الدخوار الطيب (مهذب الدين عبد الرحيم بن على).
  - ٥- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ويكنى بأبي القاسم محمد).
  - ٦- ابن سني.
  - ٧- القاضي ابن الزكي.
  - ٨- ابن أبي عمر.
  - ٩- صفى الدين المراغى.
  - ١٠- العماد بن السلماني.
  - ١١- الأديب فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي.
  - ١٢- ابن جماعة.
- كتبه: ألف الآمدى فى كثير من فروع العلم والمعرفة فقد ألف فى الفلسفة والمنطق ثمانية كتب، وسبعة فى الجدل والخلاف، وخمسة فى علم الكلام وأربعة فى أصول الفقه، نيينها فيما يلى:
- أولاً: فى الفلسفة والمنطق:
- ١- رموز الكنوز.
  - ٢- دقائق الحقائق.
  - ٣- لباب الألباب.
  - ٤- الغرائب وكشف العجائب فى الافترانات الشرطية.
  - ٥- النور الباهر فى الحكم الزواهر.
  - ٦- كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات وهو شرح لكتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا.

٧- المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين.

٨- فرائد القلائد.

ثانيًا: في الخلاف والجدل:

١- شرح كتاب الجدل للشريف الجرجاني.

٢- غاية الأمل في علم الجدل.

٣- المآخذ الجلية في المآخذات الجدلية.

٤- دليل متحد الائتلاف وجار في جميع مسائل الخلاف.

٥- التعليقة الكبرى.

٦- التعليقة الصغرى.

٧- الترجيحات في الخلاف.

ثالثًا: علم الكلام:

١- خلاصة الابريز تذكرة الملك العزيز.

٢- غاية المرام في علم الكلام.

٣- أبكار الأفكار.

٤- منائح القرائح.

٥- المآخذ على المطالب العالية للرازي.

رابعًا: علم أصول الفقه:

١- منتهى السالك في رتب المسالك.

٢- المآخذ على المحصول (نقد لكتاب المحصول للرازي).

٣- الإحكام في أصول الأحكام.

٤- منتهى السؤل في علم الأصول (وهو مختصر لكتابه الإحكام في أصول

الأحكام).

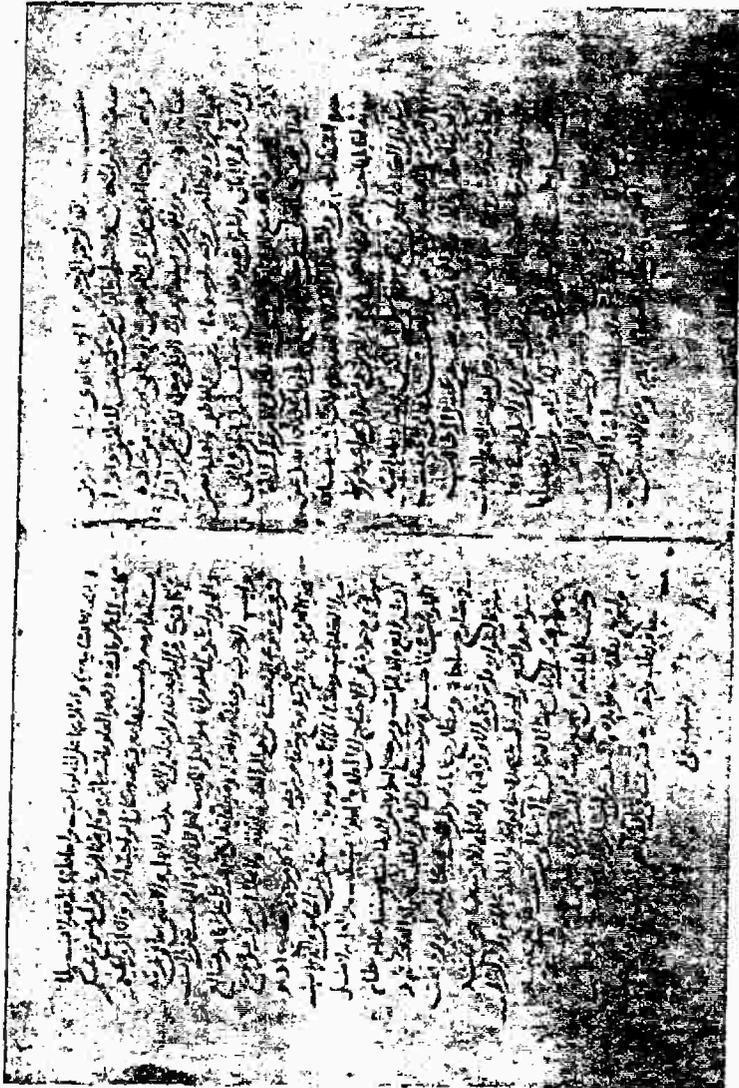
وبعض مؤلفات الأمدى مفقودة حتى الآن والموجود منها ثمانية كتب بعضها مطبوع والبعض الآخر ما زال مخطوطاً وهي<sup>(١)</sup>:

- ١- أبكار الأفكار
- ٢- غاية المرام.
- ٣- دقائق الحقائق
- ٤- الإحكام في أصول الأحكام.
- ٥- منتهى السؤل في علم الأصول.
- ٦- كشف التمويهات على الإشارات والتنبيهات.
- ٧- المآخذ على المطالب العالية للرازي.
- ٨- المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين.

---

(١) عقيدة سيف الدين الأمدى في الله وصفاته دراسة ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتورة إحسان عبد الفقار عبد الله مرزا رسالة دكتوراة من جامعة أم القرى إشراف الاستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح ص ١٢٠.





صورة اربعة السطحة من الاصل

## «كتاب فيه

## غاية المرام في علم الكلام

تأليف الشيخ الفقيه الإمام سيف المناظرين ولسان المتكلمين أبي الحسن  
علي بن أبي علي الآمدي، ثبت الله سعادته، وصان عن الغير مهجته.

القانون الأول: في إثبات الواجب بذاته.

القانون الثاني: في إثبات الصفات — فيه قاعدتان:

الأولى: في النظر في الصفات النفسية.

الثانية: في إثباتها — مطلب في إثبات صفة الإرادة.

مطلب في إثبات صفة العلم.

مطلب في إثبات صفة القدرة.

مطلب في إثبات صفة الكلام.

مطلب في إثبات صفة الإدراكات

القانون الثالث: في وحدانية الباري.

القانون الرابع: في إبطال التشبيه وما يجوز عليه — تعالى — وما لا يجوز.

القانون الخامس: في أفعال واجب الوجود — فيه مطلبان:

مطلب نفى الغرض.

مطلب في حدث وقطع تسلسل الكائنات.

القانون السادس: في المعاد<sup>(١)</sup>.

(١) هذه هي الصفحة الأولى من المخطوطة كما وردت بالأصل، وفي الركن الأعلى من اليمين  
توجد كلمات أمكن أن أتبين منها.